الباب الأول

شرق أفريقيا والعرب
قبل الإسلام

تضم منطقة شرق أفريقيا الشمالية أرتيريا والحبشة، أما ساحل الزنج أول شرق أفريقيا والجنوبية فإنه يشتمل على إقليم الصومال وكينيا وتنزانيا وموزمبيق، بل إن حدوده تتسع حتى تصل جنوبا إلى حدود اتحاد جنوبا أفريقيا، بل يمتد الإقليم الجنوبى من خليج جروفون شمالاً إلى خليج دلجاوا جنوباً، وهو يكاد أن يطلق على الإقليم من الناحية السياسية، وإن كان اقليم شرق أفريقيا البريطانية يشتمل على معظم أجزاء الإقليم (العصر الإستعمارى)، والتى كانت تلك الأقسام تشتمل على أوغندا، كينيا، تنزانيا (تينجانيقا، زنجبار)، بالإضافة إلى أنه يضاف لها اقليم راوندى وبروندى، التى تقع وتشكل جزءاً من هضبة شرق أفريقيا، ولقد كان هذان الإقليمان يخضعان أو يشكلان جزءاً من الكونغو البلجيكى؛ حتى حصلا على استقلالهما عام ١٩٦٠م وانضما للأمم المتحدة عام ١٩٦٥م.

وهذا الإقليم تنتشر به سلسلة من الهضاب والمرتفعات، أهمها الهضبة الحبشية التى يبلغ ارتفاعها نحو ستة آلاف وخمسمائة، قدم والتى تأخذ فى الارتفاع كلما سرنا نحو الشرق؛ حتى يبلغ ارتفاعها فى أقصى الشرق إلى ثمانية آلاف قدم، ثم تنحدر تدريجياً صوب الغرب، متجهة صوب سهول السودان، ثم يقل ارتفاع هذه الهضبة بالتدريج فى الجنوب الشرقى؛ حيث تتخللها الوديان العميقة، فتقسمها إلى طائفة من الهضاب الصغرى، ثم هضبة البحيرات، وهذه الهضاب المنتشرة من الشمال إلى الجنوب تكاد أن تكون حاجزا يمنع أو يقلل من اتصال هذا الجزء ببقية العالم الأفريقى المجاور، وهى تترك بينها وبين ساحل البحر الأحمر والمحيط الهندى سهولا فسيحة، تغلب عليها الطبيعة الصحراوية أو شبه الصحراوية.

هذه الحواجز الهضبية الممتدة من الشمال إلى الجنوب، على هيئة حاجز ضخم، عزلت المناطق الساحلية عن الداخل، لكنها فرضت على هذه المناطق أن تتجه وجهة شرقية نحو عالم الجزيرة العربية والمحيط الهندى، وأن تتصل بهذه العوالم عن طريق البحر، عبر مضيق باب المندب. أو عن طريق المسالك الملاحية فى المحيط الهندى. ومضيق باب المندب طريق ضيق جدا، ولا يعتبر عبوره من إحدى القارتين إلى القارة الأخرى أمراً شاقاً،حتى لدى الشعوب البدائية، وتكتنفه الجزر، وأكبر الظن أنه كان فى العهود البشرية الأولى أصغر مسافة، والقارتان أشد تقاربا، ولم يكن هذا الباب يوما مشكلة جدية، تعوق انتقال الجماعات الأولى من أفريقيا إلى آسيا أو فى جنوب الجزيرة العربية إلى جانب الغربى للبوغاز، فهل دخل

الإنسان قارة أفريقيا من هذا الباب، والإجابة عن هذا السؤال لا تزال موضع جدل وبحث، إذ إن الانتقال البشرى من آسيا إلى أفريقيا يمر بباب المندب ظاهرة، ترى آثارها اليوم رأى العين، ولا سبيل إلى إنكارها، فإن الآثار الثقافية الآتية من آسيا واضحة تمامًا فى الأقاليم الأفريقية المتاخمة للبوغاز، وفى الأقاليم التى تليها.

ومن أهم ما ترتب على هذه الظاهرة ما نراه فى هضبة أثيوبيا من آثار ثقافية من جنوب جزيرة العرب، وما نشاهده من آثار عربية أخرى فى شرق أفريقيا، هذا ولم يعرف أن هناك هجرة بشرية خطيرة، حدثت فى الاتجاه المضاد، أى من أفريقيا إلى آسيا وغيرت الأوضاع الثقافية فى الجزيرة العربية، صحيح أن ملوك أثيوبيا قد غزوا اليمن والحجاز، ولكنها كانت غزوة من الطراز الحربى، ولم تترك على كل حال أى أثر يستحق الذكر، سواء من الوجهة السلالية أو الثقافية؛ فطريق باب المندب إذًا هو باب لدخول السلالات والثقافات إلى الموجات البشرية المتتالية، عبر القرون، منذ أقدم العصور إلى وقتنا هذا؛ حيث كان هذا المعبر ولا يزال يمثل مصدر هجرة بشرية منذ أقدم العصور؛ حيث انتشر سكان الجنوب العربى على السواحل الشرقية للقارة الأفريقية؛ حيث استقرت منهم جماعات على الساحل، فى الاتجاه جنوبا، ثم تسربت اعداد كبيرة منهم بعد ذلك غربا، فقد كان طريق باب المندب من أهم طرق الهجرة، وكذلك أهم طرق التبادل التجارى والحضارى قبل الإسلام؛ حيث ترك عرب الجنوب فى الجانب الأفريقى أثرهم الحضارى والثقافى والعمرانى؛ ذلك لأنه من المعروف تاريخيا أن عرب اليمن وجنوب الجزيرة وساحل عمان قد هاجروا إلى الحبشة والساحل الشرقى (ساحل الزنج)، ونشروا فيهما ثقافتهم العربية، فى وقت يرجع إلى عهد بعيد أيضا. وللحق.. لقد كانت نقطة الانطلاق فى تاريخ شرق أفريقيا متصلة اتصالا وثيقا بجنوب الجزيرة العربية.

لقد تدفق الساميون من هناك غزاة أحيانا وتجارة أحيانا على جبال الحبشة المنيعة وسهولها الواسعة، وطوروا مع الوقت حضارة أثيوبية وشرق أفريقيا؛ فأضافوا عليها من حضارتهم سمات كثيرة. ولقد تأثرت هذه المناطق الساحلية وبين آسيا، وعملت الطبيعة بدورها على تيسير الاتصال بين هذه المناطق الساحلية بشرق أفريقيا وبين بلاد العرب والهند، فالرياح الموسمية تهب فى شهر ديسمبر من كل عام، متجهة إلى الشمال الشرقى، وتظل تهب فى هذا الاتجاه حتى آخر نوفمبر، ثم يتكرر هبوب الرياح مرة أخرى من إبريل إلى سبتمبر، فى اتجاه مضاد نحو الجنوب العربى ومعنى هذا إن هذه الرياح تحمل أهل ساحل

شرق أفريقيا إلى شواطىء الهند، ثم تحمل أهل الهند إلى ساحل جزيرة العرب الجنوبى ومضيق عدن، وهكذا كانت من أهم هذه الموجات وأسبقها فى الزمان الموجات المتجهة، صوب القارة الإفريقية عن طريق باب المندب أولاً، وبوغاز باب المندب طريق واحد عريض، سلكته الجماعات البشرية المتتالية فى مسالك متعددة متقاربة أو متباعدة، تبعاً للمصدر، الذى ترجع إليه كل جماعة وافدة فى مواطنها الأصلية، ولاشك فى أن هذه الحركات البشرية، القادمة من آسيا جنوب الجزيرة وساحل عمان، قد كان لها أثر عظيم فى تعمير شرق القارة بالسلالات البشرية وبضروب متنوعة من الثقافات، وآثار هذا التيار الشرقى المتجه نحو أفريقيا قد امتدت إلى الجنوب الشرقى للقارة.

ولقد كان العرب على صلة عميقة الجذور بأفريقيا، منذ القدم عن طريق التجارة والهجرة، وخاصة إلى السواحل الشرقية من القارة، ولا تزال آثارهم شاهدة على ذلك، وهكذا ظهرت التأثيرات العربية واضحة فى ساحل شرق أفريقيا فى المنطقة الممتدة على رأس جروفون، شمالاً إلى خليج دلجادو جنوباً، وهى المنطقة التى أطلق عليها العرب ساحل الزنج أو زنجبار (من الفارسية بار بمعنى الساحل) حيث كان التجار من جنوب الجزيرة وسواحل الخليج العربى أقدم فى وطئها، وكان قدومهم للتجارة حيناً، أو للاستيطان حينا آخر وعلى الرغم من أنهم كانوا قلة من الناس يأتون فى فترات محدودة، إلا أنه يمضى الزمن، بدأ اختلاطهم يشتد بالسكان فتزوجوا من نساء القبائل، وأقاموا عدة مراكز تجارية على الساحل للاشتغال بتجارة الذهب والعاج والرقيق، على أنه يلاحظ أن القبائل الأفريقية لم تتمكن من أن تستوعب أو تذيب الوافدين عليها؛ لأن مورد العرب كان منهلا لا يكاد ينقطع وترتب على ذلك أن احتفظ هؤلاء النازحون إلى حد كبير بسماتهم المميزة.

وقد كانت هذه المنطقة بحكم موقعها على الساحل المقابل للجنوب غرب الجزيرة العربية، المجال الحيوى للجماعات، التى خرجت من بلاد العرب بصفة عامة ومن اليمن وجنوب الجزيرة العربية بصفة خاصة للتجارة،وطلب الرزق أو لاتخاذ مواطن جديدة، هرباً من حالات الذعر.

وليس من اليسير تحديد هذه الجماعات التى جاءت إلى الساحل الأفريقى، غير أنه من المؤكد أن جماعات كثيرة فى أعدادها قد دخلت القرن الأفريقى، وأخذت تنتقل فى القارة

الأفريقية، هذه الجماعات كانت قد وصلت إلى ما يعرف فيما بعد -باسم دويلات الطراز الإسلامى- بر سعد الدين، ثم يقع منها جنوبا يقع ساحل البنادر أو صوماليا، حيث إنه لم تكن لهذا الإقليم، كما لم تكن لغيره من الأقاليم بصفة تامة حدود على المستوى السياسى المعروف فى الوقت الحاضر، كما لم تكن هناك من حدود قبلية، تبين مناطق الرعى الفعلية لكل فريق، ويرجع عدم الاهتمام بإقامة حدود خاصة فى إقليم ساحل البنادر (لفظ بندر مفرد بنادر، يرجع فى أصله إلى اللغة الفارسية، ونقل منها إلى اللغة التركية، واستخدم فى اللغة العربية للدلالة على المدينة التى يقوم فيها سوق تجارى، أو على الميناء التى تصل إليها. البضائع وبصفة عامة يطلق هذا اللفظ على عواصم الأقاليم ومراكزها الكبيرة) لسبب رئيسى، وهو أن حكومات مدن قد قامت على الساحل، ولم تتعد سيطرتها حدود المنطقة، التى تقوم فيها المدينة، وكانت فى داخل الأقاليم قبائل رحل تنتقل من هنا وهناك.

وعرف الإقليم قديما باسم « أوزانيا »، وكان جزءاً من بلاد بونت، أما اسم صوماليا أو الصومال الذى عرفت به حديثا، فإن هذا الاسم يرجع على وجه التقريب إلى القرن الخامس عشر الميلادى، فقد ورد الاسم فى قصيدة أثيوبية، بمناسبة انتصارات اسحاق نجاشى أثيوبيا على إمارة (اوفات) فى ذلك القرن، وهناك روايات عديدة عن أصل هذا اللفظ، غير أن هناك احتمالاً بأن أصل هذا اللفظ يرجع إلى أحد مصدرين، أو إلى الاثنين معاً، وهما وادى شمايل الموجود فى عمان فى جنوب شرق الجزيرة العربية، أو وادى صومل الموجود فى اليمن على مسافة من صنعاء،وفى هذه الحالة يكون هذا الاسم فى صورته المحرفة قليلا، قد جاء مع جماعات عربية جاءت إلى الإقليم.

ويبدأ هذا الإقليم صوماليا من جنوب منطقة الزيلع فى خليج عدن، وينتهى جنوباً عند راس شمبونى، وهذا على تقدير الحدود السياسية، والحد الشرقى المحيط الهندى، وفى الغرب لم تكن الحدود محددة فى الماضى، وينقسم الإقليم إلى ثلاث مناطق، عرفت الأولى منها وهى المطلة على خليج عدن، وتنتهى عند رأس حافون برأس عسير أو رأس البلهارات، وتنبت فى هذا الإقليم اشجار البخور والمر وغيرها، وتعرف المنطقة الثانية باسم سير العجم أو العجانى كما ينطقه البعض، ويبدأ من رأس حافون وينتهى عند نهر الجيب (الجوبا)، وتجرى فى هذا القسم مياه نهر الشيلى والجيب. وعلى الرغم من اختلاف مياههما من حيث الملوحة، فإن

واديها أكثر صلاحية للاستغلال الزراعى، وتوجد فى منطقة قريبة لهذين النهرين ذبابة التسى تسى التى تقتل الماشية وغيرها.

وعرف هذا القسم أيضا باسم ساحل البنادر؛ لقيام سوق تجارية على شاطئه وأطلق على المنطقين الأولى والثانية (القرن الأفريقى)، وترجع علاقة الإقليم بالجزيرة العربية ومصر والهند وغيرها إلى عهد سحيق فى القدم، فقد كانت علاقة الساحل وطيدة الأركان مع ممالك مصر وجنوب الجزيرة العربية، ومنها مملكة الظفار، التى قامت فى أرض المهرة، وكذلك مع الممالك الأخرى، التى قامت فى جنوب الجزيرة العربية ،ومنها: سبأ وذو الريدان ومعين وقتيان وحضرموت ومملكة حمير.

وقد استخدمت هذه الممالك مينائى عدن ومخا، وتقع عدن على الخليج المعروف بهذا الاسم ،أما ميناء منى فيطل على البحر الأحمر،وكان استخدام كل من الميناءين بما يتناسب مع الوضع الإقليمى للمملكة القائمة، ويعتقد أن السيطرة على ساحل أفريقية الشرقى قد انتقلت إلى الأحباش بعد دخولهم إلى اليمن، ولكن هذا غير صحيح، ويحتمل أن السيادة على شرق أفريقية قد انتقلت إلى الفرس، الذين جاءوا إلى جنوب غرب الجزيرة العربية وأخرجوا الأحباش منها، وتقول بعض المصادر إن السيطرة الحميرية على شرق أفريقية كانت عن طريق ولاية أوزانيا جنوب صوماليا، التى كان ساحلها مركزا للنشاط الاقتصادى.

وقد كان الصوماليون يسكنون المنطقة الساحلية المطلة على خليج عدن، وتحتل الجالا المنطقتين الجنوبية والغربية، وتقطن جماعات البانتو فى حوض الشيلى والجيب، وكانت على الساحل فى قسميه –المطلين على خليج عدن وعلى المحيط الهندى– مدن أو بنادر تجارية، تسكنها جماعات من العرب والفرس وغيرهم،وقد أصاب التجارة البحرية ركود فى الفترة الزمنية السابقة لظهور الإسلام، وقد حدث فى تلك الفترة سقوط سد مأرب؛ الأمر الذى دفع بالسكان إلى الهجرة إلى خارج جنوب غرب الجزيرة العربية، وكان الساحل الأفريقى الشرقى فى خليج عدن وساحل القرن الأفريقى وبر الزنوج من أقرب المناطق لهؤلاء المهاجرين، وقد تبعت هذه الجماعات خطى العرب الأوائل، الذين جاءوا إلى الساحل ومن ثم أقاموا على الساحل مدنا، تولى الحكم فيها الزعيم، وعرفت هذه المدن باسم البنادر، ويرجع تاريخ البنادر إلى زمن سحيق قبل الإسلام.

وكان لهذا الساحل نشاطه التجارى وصلاته مع الدول المطلة على المحيط الهندى، كما وصلت إليه السفن التجارية من حوض البحر الأحمر من مصر، والقوافل التجارية من حوض وادى النيل الأوسط عن طريق جنوب السودان، وكانت هناك علاقات تجارية وثيقة بين هذه الأقطار.

أما المنطقة الجنوبية -حيث تحدثنا عن المنطقة الشمالية بر سعد الدين، ثم بر البنادر- فإننا هنا نتحدث عن المنطقة الجنوبية من أقاليم شرق أفريقيا، ويطلق عليها بر الزنوج أو بر الزنج، وأصل هذا الاسم أنه أطلق على ساحل أفريقيا الشرقى، ويشمل المنطقة التى تمتد من حدود كينيا الشمالية مع بر العجم إلى سوفاله جنوبا (موزمبيق)، وكان هذا الساحل بصفة خاصة مع ساحل بر العجم (صوماليا) وثيق الصلة بشبه الجزيرة العربية وبلاد ما بين النهرين (العراق وغيرها من أقاليم المحيط الهندى)، وقد لعب هذا الساحل دوراً مهماً فى التجارة بين مختلف الأقاليم؛حيث كان المحيط الهندى فى الزمن القديم مركزاً خطيراً للتجارة الدولية، وكان الساحل الغربى للمحيط الهندى أو ساحل أفريقيا الشرقى مركزا أو وسيطاً، تلتقى فيه مختلف التجارات،كما التقت فيه حضارات العالم، ويبدو أن اتخاذ الساحل الأفريقى المطل على المحيط الهندى كمركز للتجارة، يرجع إلى عهود بعيدة فى التاريخ، وقد خضعت تلك المنطقة على سبيل المثال لحكم الفرس فى عهد الملك بهرام الخامس (٤٢٠ - ٤٣٩م)؛ حيث سيطرت الدولة الساسانية على ذلك الإقليم فى تلك الفترة، وكانت السفن الفارسية على طريق الملاحة فى المحيط الهندى الغربى تستخدمه، واستمرت قابضة على هذه السيطرة إلى أوائل القرن السابع، الذى سقطت فيه الدولة الساسانية على يد الجيوش الإسلامية.

ومن المؤكد أن العرب كان لهم تأثيرهم الواضح فى شرق أفريقيا، ويدل على ذلك أن الإغريق والرومان أطلقوا عليه اسم ساحل عزانيا نسبة إلى إحدى الممالك القديمة، وهى مملكة عزان التى يقال إنها وجدت فى منطقة ما فى جنوب شبه الجزيرة العربية، فى فترة سابقة على ظهور الإسلام، لم تحدد تحديدا قاطعا.

ومن هنا فإنه من المرجح أن يكون عرب جزيرة العرب-وخاصة عرب الجنوب- هم أقدم الشعوب العربية اتصالا بالسواحل الشرقية الأفريقية،بحكم الجوار الجغرافى،وساعدهم على قيام هذه الصلات نظام الرياح الموسمية؛ فالرياح الموسمية كانت تمكن السفن الشراعية الصغيرة

المعروفة باسم واهو Ohaw، من القيام برحلتين على الأقل فى العام، ففى الخريف تدفعها الرياح الموسمية الجنوبية الغربية من خليج عمان وسواحل الجزيرة العربية نحو الساحل الأفريقى، وفى فصل الربيع تدفعها فى اتجاه الشمال الشرقى؛حيث تمكنها من العودة إلى قواعدها، وفى خلال دورة الرياح يتم التعامل التجارى.

وعن هذا الطريق دخلت المؤثرات السامية القديمة، وعن هذا الطريق البحرى نفسه تسرب العرب إلى شرق أفريقيا والحبشة، وأوغلوا فيها؛ حتى إذا جاء الإسلام اعتنقوه ونقلوه إلى قلب الهضبه نفسها،بل أكثر من هذا أن هؤلاء المهاجرين،كانوا يوطدون علاقاتهم وصلاتهم بالطبقة الحاكمة،وكان الأمراء والحكام يرحبون بهم ترحيباً عظيماً؛فهم وسيلتهم للكسب والثراء، فقد كانوا يساعدون هؤلاء الناس على تصريف منتجاتهم ،وشراء ما يحتاجون إليه.

وكما أنه كان للاتجاهات الملاحية من عوامل الرياح أثر عميق على نظام الملاحة، بين شرق أفريقيا من ناحية، وجنوب الجزيرة العربية والخليج العربى وموانىء الهند الغربية من ناحية أخرى، ففى فصل الخريف تندفع الرياح الموسمية فى اتجاه جنوبى غربى، فتخرج السفن الشراعية من موانئ الساحل الجنوبى للجزيرة العربية والخليج العربى إلى المحيط الهندى، ثم تنتشر بمحاذاة الساحل الشرقى الذى ينحنى فى اتجاه جنوبى غربى.

وفى فصل الربيع تدفعها الرياح فى اتجاه شمالى، وبذلك تتمكن السفن من العودة إلى قواعدها فى سواحل الجزيرة العربية، وفى دورة الرياح فى اتجاه شمالى، كان يتم التعامل التجارى، وقد استفاد الهنود من تلك الرياح؛ فوضح اتصالهم بالساحل الشرقى لأفريقيا، ووجدت لهم جاليات كثيرة على الساحل، وقد ظلت الرياح الموسمية سراً من الأسرار التى احتفظ بها العرب والهنود لأنفسهم، إلى أن تمكن ملاح إغريقى فى القرن الأول الميلادى من كشف اتجاه هذه الرياح، وكان من نتيجة ذلك ظهور بعض الكتب باللغتين اليونانية واللاتينية عن المحيط الهندى وموانيه وحركة التجارة فيه، ومن الملاحظ أيضا أن العرب لم يقتصروا نشاطهم على الساحل الشرقى للقارة الأفريقية، وإنما اندفعوا بفضل تلك الرياح إلى الشرقى الأقصى؛ حيث وجدت بعض المستوطنات العربية فى سواحل الهند والصين وجزر الشرق الأقصى، وكان لهم فضل فى نشر الإسلام بعد ظهوره فى تلك البقاع.

ولقد كان البحار الأغريقى الذى وصل إلى تلك الأنحاء فى القرن الأول الميلادى (٤٥م) قدكشف اتجاه هذه الرياح، ومن ثم وضع كتاباً، أطلق عليه الدليل الملاحى للبحر

الأرتيرى،وهو الاسم الذى كان يطلق على الجزء الغربى من المحيط الهندى،وعلى وجه التحديد الجزء الملامس لسواحل شرق أفريقيا، والكتاب من المصادر المهمة فى تاريخ شرق أفريقيا؛ حيث يتحدث فى كثير من فقراته عن كثرة السفن العربية، وعن اختلاط العرب وتزاوجهم من القبائل الأفريقية، كما يعرض لتعدد العناصر على الساحل، والتى كانت تفد من الهند وفارس وجزر الشرق الأقصى، بالإضافة إلى الجزيرة العربية والخليج العربى، وتطلعها إلى معرفة اللغة العربية، ومحاولة التحدث بها؛ لما تتيحه لهم من آفاق واسعة فى التعامل والتجارة.

ويتضح من ذلك أن ذلك البحار الأغريقى كان قد سافر بنفسه، وارتحل وشاهد تلك المناطق التى تحدث عنها، وكتب عنها كتابه هذا، الذى يعتبر أول مصدر، أكد العلاقات التى كانت قائمة بين العرب من جنوب الجزيرة العربية والساحل الشرقى لأفريقيا، ومنها أن بعض زعماء الساحل كانوا يدينون بالولاء لأمراء حمير فى جنوب الجزيرة، وأن السفن العربية كانت تأتى من جنوب الجزيرة العربية، ومن بعض مناطق المحيط الهندى؛ حيث تتبادل التجارة فيها بين الساحل، وقد قدم الكتاب معلومات عن التجارة، وعن حالة شرق أفريقيا والجزيرة العربية عموما، كما أنه تعرض لحركة التبادل التجارى التى كان يشترك فيها الهنود.

وبذلك يتضح لنا كيف كان يتم الاتصال بين العرب وسكان هذه السواحل، ومن ثم كان عليه أن يذكر أن أقدم ما عرف من اتصال بين الشعوب العربية بشرقى أفريقيا، كان اتصال شعوب الرافدين، ولاسيما زمن الملك سرجون الأكادى، الذى ولى حكم منطقة الرافدين (العراق) حوالى عام ٢٧٠٩ق. م؛ فقد عثر على نقوش سومرية وبابلية على ساحل شرق أفريقيا ترجع إلى عهد، يفيد وصول شعوب الرافدين إلى هذه البقاع.

ومن أمثلة العلاقات العربية بالساحل الشرقى الأفريقى فى العصور القديمة، ما ورد على الآثار المصرية، ويؤكد وصول السفن المصرية إلى هذه المناطق، منذ عهد الأسرة الخامسة (٢٥٦٠ - ٢٤٢٠ف م) فى عهد ساحورع؛ من أجل جلب البخور والقمح والأبنوس والعاج وجلود الحيوانات، ثم كثرت الرحلات التجارية المصرية إلى شرقى أفريقيا فى عهد الأسرة الحادية عشرة (٢١٤٣ - ١٩٩١ ق. م فيذكر أحد رؤساء البعثات فى هذا العصر واسمه خنتو (أنه سافر إليها إحدى عشرة مرة، ثم هناك اشهر ما سجل على الآثار المصرية وأعنى به مناظر الرحلة التى أوفدتها الملكة حتشبسوت (١٤٩٠ - ١٤٦٩ ق م) إلى تلك البلاد التى سجلت على جدران معبدها بالدير البحرى).

ولقد كان الأثر نفسه لقيام دولة عربية فى اليمن، ذات حضارة زاهرة منذ القرن ١٤ ق. م وهى دولة معين وسبأ وحمير، والتى قامت حضارتها وثروتها من العمليات التجارية البرية والبحرية،فكان أهلها يجلبون السلع من الهند وساحل أفريقيا الشرقى، ثم تنقلها القوافل إلى الشام والعراق ومصر .ومع ازدهار التجارة وتقدم فنون الملاحة، زاد اتصال العرب بالساحل الشرقى لأفريقيا، وفى هذه الفترة زادت العلاقات العربية الأفريقية، وكثر قدوم السفن العربية فى الساحل الشرقى لأفريقيا،وكثر اختلاط العرب وتراوجهم مع القبائل الأفريقية،بل إن بعض زعماء الساحل كانوا يدينون بالولاء لدولة حمير فى اليمن؛ فيقال عن العرب إنهم يألفون أهل البلاد، ويتزاوجون معهم،ويعرفون الساحل واللغة،ومن هنا كان انتقال السكان العرب إلى شرق أفريقيا،حيث نسب الأغريق والرومان هذا الساحل إليهم فيما بعد، ولكن مما هو جدير بالذكر أنه على الرغم من معرفة الأغريق والرومان لساحل شرق أفريقيا، إلا أنهم لم يتصلوا به اتصال العرب، ثم حدث أن تعرض الغرانيون لغزوات من الشمال وهجرات قبلية،غيرت من معالم حضارتهم؛ خاصة حينما وفدت على الساحل قبائل الجالا والصومال والمساى. وغيرهم من شعوب القرن الأفريقى، وأخضعوا المنطقة لنماذج حياتهم العربية ومواني ء الساحل الشرقى لأفريقيا؛ حيث تمكن عرب الجزيرة العربية من عبور باب المندب إلى الساحل الأفريقى.

وقد ساعدت العوامل الجغرافية على نشاط حركة الملاحة، وكذلك ساعدتهم معرفتهم بعلم الفلك، وتحديد اتجاهات الشمس والكواكب على الملاحة بانتظام بين بلادهم وبين سواحل أفريقيا الشرقية من بلاد الدناقل وعدن شمالا،حتى موزمبيق وما جاورهما من جزيرة مدغشقر جنوبا،ومن ثم كان العرب أول من عرف أفريقيا الشرقية،أول من اتصل بالجماعات البشرية المقيمة على سواحلها،وكان مضمون هذا الاتصال التبادل التجارى،وتصريف منتجات سكان أفريقيا الشرقية المقيمة على سواحلها، وربطها بأهم مصادر الإنتاج العالمى فى الشرق الأقصى وبلاد البحر الأبيض، وقد ساعد على ذلك عوامل الجوار والتوجيه البحرى والتجارى. أو بمعنى آخر المواجهة المكانية للجزيرة العربية أمام أفريقيا؛ فضلاً عن الظروف الجغرافية والمناخية السائدة؛ فمثلا نجد أن ساحل شرق أفريقيا يتجه اتجاهاً عاماً من الجنوب الغربى إلى الشمال الشرقى، ويبدو هذا الاتجاه بوضوح فى ساحل الصومال الحالية من رأس جردفون حتى أرخبيل زنجبار وبمبا، ثم يتجه الساحل بعد ذلك إلى الجنوب حتى خط عرض ١٥

درجة جنوبا، ثم يتابع بعد هذا انحرافه نحو الجنوب الغربى،حتى أقصى جنوب القارة،ولاشك أنهما كانا أهم اتجاهين، لهما تأثير عميق على تطور الساحل الشرقى لأفريقيا، وبالتالى على الاستقرار فيه وعلاقاته بسواحل الخليج والجزيرة العربية، ثم الاتجاه فى الشمال الشرقى إلى الجنوب الغربى فى سواحل الصومال، ثم الاتجاه من الشمال إلى الجنوب فى عروض كينيا وتنزانيا، وما يليها فى الجزء الشمالى من موزمبيق، إذ إن هذه كل هذه الأمور قد ساعدت على انتشار العرب، وازدياد نشاطهم على الساحل الشرقى لأفريقيا.

ويبدو أن العرب فى المرحلة الأولى من استقرارهم لم يتوغلوا داخل القارة، ولكن اكتفوا بإقامة بعض المراكز التجارية على الساحل؛حيث يصل إليهم مندوبون عن القبائل الأفريقية، يحملون إليهم الذهب والعاج وغيره من منتجات بلادهم، ويقايضونهم على ما لدى التجار العرب من بضائع وتبقى السلع الأفريقية فى المراكز العربية الساحلية؛ حتى يحين موعد رحيل السفن؛ حيث يتم نقل البضائع الأفريقية إلى الخليج العربى أو سواحل شبه الجزيرة العربية، ومن هناك تنقلها القوافل إلى الشام والعراق ومصر، أو تنقلها السفن إلى الهند.

وقد قام العرب بتصدير تراب الذهب والعاج والرقيق، الذى كان يحمل إلى الدول القديمة، التى كانت تلح فى طلبه، وهى الإمبراطوريتين الفارسية والرومانية، وتعاونت القبائل الأفريقية مع العرب فى هذه التجارة؛ حيث كان الرؤساء وزعماء القبائل يأتون إلى الساحل، محملين بالذهب والعاج والرقيق، فيقايضون التجار العرب المتعاملين معهم بما يحملونه، وكانت البضائع الأفريقية غالبا ما تستبقى فى المراكز التجارية، التى أقامها العرب على السواحل، إلى أن يحين موسم الرياح؛ حتى يتم نقلها إلى الخليج العربى وسواحل الجزيرة العربية فى رحلة العودة، وكان العرب يقايضون على ما يأخذونه بالحرير، الذى كانوا يحصلون عليه من الهند.

وقد اضطرد نشاط حركة التعامل التجارى؛ فوصلت تجارة الذهب إلى درجة كبيرة من الانتعاش، كما يؤخذ ذلك من التاريخ المحلى لسلطنة كلوة، وشهدت الجزيرة العربية أعداداً وفيرة من الزنوج الذين جلبهم العرب من شرق أفريقيا. واستخدموهم فى حراسة قوافلهم، كما تزوجوا منهم وتناسلوا، ونشأ من نتيجه ذلك نسلاً أو جيلاً، عرف بشجاعته وسواد بشرته.

ولقد كانت الهجرة العربية الواسعة على أثر انهيار سد مأرب باليمن؛ حيث خرجت من جنوب شبه الجزيرة العربية هجرات عربية إلى مختلف الأنحاء، سواء داخل شبه الجزيرة أو

خارجها، وكان من الطبيعى أن يتجه جزء من هذه الهجرات إلى الساحل الشرقى لأفريقيا؛ حيث القرب الجغرافى، والمعرفة السابقة بالساحل والأخوة وأبناء العمومة، الذين قد سبقوا بالهجرة إلى تلك الأماكن فى أزمان سحيقة فى القدم، وقد كان ربط الهجرات القديمة بالهجرات اللاحقة بعد انهيار سد مأرب، له أثر في زيادة التأثير العربى فى سكان الساحل فى قبائل البانتو، ويرى بعض الباحثين إن ازدياد اختلاط العرب بالقبائل الأفريقية منذ هذه الفترة القديمة، كان بداية لظهور ثقافة مميزة المعالم، أخذت من كل من الشعبين، وهكذا أصبحت السواحلية لغة قائمة بذاتها، مزيجًا من الذى أتى به العرب، والذى كان ملكاً خالصا للأفريقيين، وهذا لا ينفى وجود اللغة العربية فى الساحل الأفريقى، كلغة قائمة بذاتها؛ باعتبارها لغة الأرستقراطية الحاكمة.

ولا تزال رحلات السفن الشراعية التقليدية المعروفة باسم الدوات Dhaws، تعمل فى المحيط الهندى والخليج العربى، وجنوب الجزيرة العربية وشرق أفريقيا، وتقوم بنشاط ملاحى له أهميته فى المحيط الهندى حتى وقتنا الحاضر .وهذه الصورة من الترابط والنشاط الحضارى فى المحيط الهندى، محتاجة إلى كثير من الجهود العلمية الدائبة؛ لتوضيح غموضها، وإذ كنا قد تحدثنا عن أقسام الساحل الشرقى لأفريقيا الثلاثة (بر سعد الدين، الإمارات الإسلامية الحبشية ممالك الطراز الإسلامى، ساحل البنادر، صوماليا ثم أخيراً الجزء الجنوبى ـ ساحل الزنج) إلا أن الضرورة التاريخية تحتم دراسة الجزء الشمالى بدراسة موسعة، أكثر من الإشارة السابقة؛ ذلك لأن الدور الإسلامى فى الحبشة وامارات الساحل (أرتيريا) والإمارات الداخلية قد لعب دوراً مؤثراً وفعالا فى انتشار الإسلام فى تلك الأقطار، فعلاقة منطقة الحبشة الشمالية أو ساحل شرق أفريقيا الشمالى، وبصفة خاصة بمنطقة اليمن، ترجع إلى عصور ما قبل التاريخ كما سبق أن ذكرنا، لأن صلة الربط بينهما قوية، فلا يفصل بينهما سوى البحر الأحمر الضيق، مضيق باب المندب، والذى يضيق كلما اتجهنا جنوباً حتى يكاد شاطئاه يلتقيان؛ لذلك فإن قيام علاقة وثيقة بين منطقة اليمن ومنطقة الحبشة أمر طبيعى، بل أكثر من ذلك نجد عديداً من المؤرخين والباحثين يتفقون جميعا فى أقوالهم أن كلمة الحبشة ومنها الأحباش، ترجع فى أصولها إلى قبيلة بين حبش العربية، وهى أقوى القبائل العربية، التى هاجرت من جنوب بلاد العرب فى الفترة بين القرنين العاشر والسابع قبل الميلاد،

واستقرت فى أفريقيا، ولم يأت القرن الرابع الميلادى، حتى غلب اسم هذه القبيلة العربية على المنطقة، التى استوطنتها فى شمال الحبشة، بل وعلى الوطنيين أنفسهم، ثم أطلق العرب اسم الحبشة على جميع المنطقة الممتدة بين النيل غربا والبحر الأحمر شرقا، ومن النوبة شمالا إلى ما وراء خط الاستواء جنوبا، كما أن لغة الجعز أو لسان جعز، وهو الاسم الذى عرفت به اللغة الجبشية القديمة تنسب إلى قبيلة الأجاعز (الأجعازيان)، وهى إحدى القبائل العربية التى هاجرت من اليمن إلى الحبشة، واستقرت فى الجانب الشمالى الشرقى من الحبشة، ولم تلبث أن بسطت نفوذها على سائر البلاد؛ حيث نزلت طائفة من الشعوب البدوية فى هذه المنخفضات التى تشتغل بالرعى والنقلة فى هذه السهول الفقيرة، وأصبح تاريخ هذا الجزء من أفريقيا صراعاً بين البدو سكان هذه السهول والمستقرين، سكان هذه الهضاب المرتفعة.

وإذا كان الباحثون قد اختلفوا فيما بينهم بشأن حجم الهجرات العربية إلى الحبشة، فقد انفقوا جميعا على أن هناك هجرات عربية، شملت أعداداً من التجار، استقروا على الشاطىء الغربى للبحر الأحمر فى منطقة الحبشة، وبمرور الزمن تزايدت أعدادهم وكونوا مراكز تجارية فى مناطق متفرقة، بطريقة تشبه- إلى حد كبير- ما حدث فى ساحل الزنج، فتكونت مراكز حضارية، ظلت لفترة طويلة على صلة بالوطن الأم، وبمرور الزمن اختلط العرب بالوطنيين الأصليين، وكان من نتاج هذا الاختلاط مواطنو مملكة اكسوم، التى ازدهرت فيما يبدو منذ منتصف القرن الأول الميلادى وهى تقابل من تاريخ العرب عصر الجاهلية وصدر الإسلام وليس أدل على عمق الإسلام والعروبة فى تلك الديار، مما أشارت إليه صحيفة الأهرام القاهرية، فى عددها رقم ٣٦٥٥٠ بتاريخ ٣ يناير ١٩٨٧م، بذلك العنوان اكتشاف أقدم أثر بشرق أفريقيا: اكتشف فريق من علماء بجامعة أوكسفورد البريطانية بقايا مسجد، يرجع تاريخ إنشائه إلى أكثر من ألف عام على الساحل الكينى، فيما يعتبر أقدم أثر إسلامى، يتم اكتشافه في منطقة شرق أفريقيا.

ويوضح ريتشارد ويلدبنج مدير الآثار بالمتحف الكينى أن بناء المسجد، تم فى حوالى ٩٥٠ ميلادية، وقد اكتشف ضمن أطلال منطقة، كانت مشهورة بالتجارة فى جزيرة بيت على حدود كينيا مع الصومال، وتربط الأساطير الحبشية بين قيام مملكة اكسوم والعلاقة بين الحبشة واليمن، إذ تقول هذه الأساطير بأن البيت المالك فى الحبشة من أقدم البيوت فى العالم (قبل الثورة الاشتراكية بقيادة منجيستو مريام). ومهما يكن من أمر.. فإن اتساع

مملكة اكسيوم وازدهارها ونشاط تجارتها، أدى إلى تقوية علاقاتها بجنوب الجزيرة العربية. ومن أجل المحافظة على تجارة الحبشة والسيطرة على الطريق البرى بين اليمن والشام، قام ملوك أكسيوم بعدة غزوات لليمن، وأخضعوه منذ وقت مبكر قد يرجع إلى أوائل القرن الثانى الميلادى، كما أنهم أخضعوا بعض القبائل العربية شمالى سبأ وحمير، كما تدخلت مملكة أكسيوم منذ القرن الثالث الميلادى فى الصراع الدائر على السلطة، فى جنوب شبه الجزيرة بين سبأ وحمير، إلا أن سيطرة اكسيوم على بعض مناطق اليمن كانت متقطعة، ولقد كانت هناك أحداث فى اليمن، دفعت مملكة اكسيوم للتدخل فى اليمن، فأرسلت حملة قوية إلى اليمن ساهم فيها الإمبراطور البيزنطى جستنيان، ونجحت هذه الحملة فى القضاء على سلطان حمير وأقامت عرشا مسيحيا يخضع لملك اكسيوم.

ولقد انتهى حكم الحبشة لليمن حوالى عام ٥٧٠م، عندما مد الفرس يد المساعدة لحمير؛ للقضاء على النفوذ الأكسيومى الحبشى؛ فأصبحت اليمن تابعة للفرس حتى فتحها المسلمون عام ١٣هـ ٦٣٤م، كما أن علاقة الحبشة لم تقتصر على اليمن فقط قبل الإسلام، بل امتدت تلك العلاقة إلى منطقة الحجاز أيضاً؛ بحيث كانت أرض الحبشة متجراً لقريش ومع التجارة ومع الهجرة المتبادلة من بلاد العرب إلى الحبشة للمتاجرة أو المهاجرة أو فى الحبشة إلى بلاد العرب- سواء أكانوا أحراراً أم أرقاء- تبادل العرب والأحباش كثيراً من المؤثرات اللغوية والحضارية، فمن المعروف أنه منذ عهد قديم جدا، كانت هناك تجارة متبادلة بين العرب والأحباش فى الحجاز.

ويشير بعض المؤرخين إلى عدم توفر المعلومات الكافية عن حالة العرب فى ساحل شرق أفريقيا فى الفترة السابقة لظهور الإسلام، إلا أن الذى لاشك فيه أن الصلات كانت قائمة لا تكاد تنقطع، حتى ظهور الإسلام فى القرن السابع الميلادى، وقد لاحظنا أنه لم يكن للعرب قبل الإسلام اتصالات دائمة بشرق أفريقيا، لاسيما الجزء الجنوبى المعروف ساحل الزنج، الذى يصل إلى سفاله فى موزمبيق جنوباً، وإنما كانت الصلات تقتصر فقط على عمليات التبادل التجارى.. وهكذا فإنه لم يكد القرن الأول الميلادى ينقضي، حتى كان هؤلاء العرب المغامرون قد انتقلوا من مرحلة الرحلات الخاطفة إلى مرحلة الإقامة والاستقرار، فقد أنشأوا مستعمرات على طول هذه السواحل، وأقاموا فيها المنازل وجلبوا أهلهم وذويهم، وطاب لهم المقام، وكانت هذه المدن العربية القديمة تنشأ على جزر قريبة من البر؛ ليمكن

الدفاع عنها إذا أراد السكان الأصليون المنتشرون فى الساحل أن يتعرضوا لها بسوء، ولا نعرف عن هذه المدن قبل ظهور الإسلام شيئاً يذكر.

وقد كانت هناك علاقات بين الساحل والهند وفارس والعراق والبحر الأحمر ومصر وحوض النيل الأوسط وجنوب غرب الجزيرة العربية وغيرها، وهنالك نصوص حبشية فى القرن التاسع الميلادى تشير إلى إقليم يوربارس الذى يقع إلى الجنوب الغربى، والذين كما ذكرت الروايات الصينية أن بلدهم به العاج والعنبر. وبالإضافة إلى هذه الرواية فإننا نجد أن السفن فى الصين قد وصلت إلى الساحل الأفريقى الشرقى، فى رحلات منتظمة متتابعة.

ومما تجدر الإشارة إليه أن منطقة الصومال كانت الميدان الذى اتخذته قبائل الجالا لشن غاراتها على ساحل الزنج (شرق أفريقيا)؛ الأمر الذى جعل سكان الساحل يلجأون إلى الأماكن الأخرى، فمنهم من دخل إلى منطقة البحيرات، ومنهم من انتقل إلى أثيوبيا وأرتيريا وحوض وادى النيل الأوسط، وكانت هذه المناطق الأخيرة أكثر أمنا وطمأنينة، وساعد ذلك على النشاط التجارى.

وتدل الاكتشافات الحديثة والعثور على العملة الرومانية إلى أن مركز الثقل التجارى قد عاد إلى الساحل الشرقى لأفريقيا، منذ القرن الرابع الميلادى، ومن بعض المراجع- كدليل التجار المسمى بربيلوس ـ بحر ارتيريا ـ، وكذلك بعض فقرات من جغرافية بطليموس، الذى عاش فى القرن الثانى الميلادى- نستدل على أن تجار الإسكندرية قد عرفوا جبال كلميغارو، والبحيرات الكبرى عند منابع النيل فى القرن الرابع الميلادى، كما تشير إلى أن النشاط التجارى فى شرق أفريقيا قد كان يتمثل فى العاج، الذى لقى رواجاً، لم يلقه فى أى فترة حتى القرن الثامن عشر الميلادى. وهناك نقص كبير فى الوثائق المكتوبة والآثار، التى يمكن أن تلقى الضوء على الفترة من القرن الثالث الميلادى حتى القرن السابع، وهى الفترة التى شهدت أخطر التطورات فى تاريخ شرق أفريقيا كله؛ إذ احتل زنوج البانتو المنطقة الساحلية ومما له دلالة واضحة أن دليل بحر أرتيريا الذى يصف ساحل شرق أفريقيا كله حتى زنجبار جنوبا، لم يشر مطلقًا إلى السود، أما فى جغرافية بطليموس فيذكرهم فى أقصى الجنوب، حتى موزمبيق شمالا، وعلى هذا فشمال موزمبيق كله كان أهله من الصومال أو الأحباش.

ولا يزال الكتاب وعلماء الأجناس والسلالات البشرية يتحدثون عن الحاميين والساميين، ومن ذلك قولهم أن الحاميين قد احتشدوا بعد انتقالهم فى موجات متتالية فى الجزء الشرقى

من أفريقيا، الذى يلى بوغاز باب المندب، والذى يسميه كثير من الكتاب قرن أفريقيا، وتتدافع الموجات عبر البوغاز، وتتدافع الشعوب، وتحتل الأقطار المختلفة على مدى قرون عديدة حتى لم يبق فى أوطانها الآسيوية إلا بقية، لم تلبث أن اندمجت فى عناصر ثقافية أخرى فى الجنوب العربى، وقد ترتب على ذلك احتشاد الحاميين الشرقيين فى شرق أفريقيا، إلى أبعد من القرن العاشر قبل الميلاد.

ومن هنا فإننا نجد أول هذه الشعوب التى سكنت ساحل البنادر هى شعب الصومال؛ حيث إنه أول ما يصادفنا، حين تغادر الأقاليم الزنجية فى شرق أفريقيا، وتتجه شمالا، ولذلك نجد بعض الصوماليين يعيشون فى كينيا فى الإقليم المتاخم لصوماليا، فأوطانهم تبدأ من المجرى الأسفل لنهر تانا على الدرجة الثانية من درجات العرض الجنوبى، وتتجه الأوطان نحو خليج عدن، كما أن هناك مساحة ضخمة تشمل الجنوب الشرقى من أثيوبيا؛ أى منطقة أوجادين وما يجاورها، وتشمل بلاد صوماليا جميع الإقليم الذى يدعى قرن أفريقيا، ثم يلى ذلك شعب الجلا، وهو الشعب الحامى الذى يعيش فى الجنوب والجنوب الغربى من أثيوبيا، وليست له أوطان خارج أثيوبيا، وهم يدعون أحيانا بأسماء أخرى مثل الموارما وادومر، ويقال إنهم نزلوا أوطانهم هذه فى القرن السادس عشر، وأجلاهم الشعب الحامى الوحيد، الذى لايزال شطر كبير منه، ولعله أكثره محتفظا بتقاليده ونظمهم الاجتماعية.

والسلالة الأثيوبية التى تهيمن على دولة أثيوبيا، قد تكونت على مدى قرون بواسطة هجرات، دخلت الهضبة واستقرت فى أرجائها، ومن الجائز أن يكون الجنس الزنجى قد دخل الهضبة منذ آلاف السنين لاجئًا أو هاربا من الجماعات الحامية، التى أخذت تتدفق عبر باب المندب، وهؤلاء الحاميون أتوا فى موجات متتالية، وسواء دخلوا الهضبة راغبين أم هاربين فلا شك أن إنتقالهم إليها قد جعلهم على مضى القرون العنصر الراجح فى تكوين السكان، ولعلهم امتصوا القلة الزنجية، التى سبقتهم إلى سطح الهضبة؛ بحيث أصبح التكوين الجنسى للأحباش يتألف من ٧٥٪ من الحاميين، ونحو ١٥٪ من الدم الزنجى، ونسبة أقل، ولكنها مهمة جداً من الساميين.

وهجرة الساميين إلى أثيوبيا تعد حادثًا بعيد الخطر فى تاريخها، وأنه لا يمكن أن يكون أثراً كثيراً فى شكل السكان؛ لأن التشابه قوى بين الحاميين والساميين، ولكن التأثير ظهر فى نواح ثقافية واجتماعية عديدة، إننا لا نكاد نعرف شيئا عن تاريخ أثيوبيا قبل دخول الساميين

إليها، وتاريخ دخول الحضارة السامية لا نعرفه إلا على وجه التقريب، ويبدو من الروايات الأثيوبية أن هذه الهجرات السامية لابد أنها وقعت فى حدود القرن العاشر قبل الميلاد.

والأثيوبيون يقولون إن البيت المالك فى أثيوبيا ينحدر من مملكة سبأ، وصفوة القول أن هجرات متتالية أتت من بلاد اليمن، وجهتها هضبة الحبشة، وقد توالت هذه الهجرات على مدى قرون عديدة، وإلا لما أمكنها أن تحدث الأثر الثقافى العميق فى هذه الأوطان الأفريقية، التى لم تلبث أن اصطبغت بالصبغة السامية، وأخذت أثيوبيا تظهر فى التاريخ، وكانت لها صلات بالبطالمة، وغيرهم من حكام وادى النيل.

أما الأثر الثقافى الأكبر قبل ظهور أنوار الإسلام، فيتمثل فى انتشار لغة سامية سبأية، تدعى لغة العجز فى منطقة تجرة وبرزت منذ زمن متقدم مدينة أكسيوم كمركز للحضارة أولا، ثم للديانة فيما بعد، وظلت هى العاصمة الدينية زمنا طويلا، غير أن لغة العجز باتت مقصورة على الشئون الدينية، وذلك لأن هناك لغة جديدة، تدعى الأمهرية، ظهرت فى القرن الثالث عشر، وقد تغير المركز السياسى من إقليم تجرة إلى إقليم امهاره، بل إن هذه اللغة الأمهرية ليست سامية خالصة، بل دخلتها عناصر من لغات حامية وغيرها، ولكنها بامتصاصها للعناصر الحامية، لم تتحول إلى لغة حامية، بل لا تزال عضوا مهماً فى اللغات السامية، وهى إلى جانب اللغة العربية واللغة التجرينية، أهم اللغات السامية الحية، والتى ظلت حية قرونا عديدة.

وهكذا نرى كيف طبعت الهجرات اليمنية العربية أثيوبيا بالطابع السامى، وأكبر الظن أنها كانت هجرات سلمية أو قريبة من أن تكون سلمية، فقد ترتب عليها اتصال مطرد بين اليمن وأثيوبيا، وانتقلت فى غضونه بعض العناصر الحضارية من اليمن إلى الحبشة، ولا شك فى أن تشابه البيئتين فى كل من اليمن وأثيوبيا ساعد على ربط الإقليمين، وتوطيد العلاقات والصلات، وإن كانت أثيوبيا فيما بعد قد رأت أن تهاجم بلاد اليمن وتستولى عليها فترة من الزمن.

لكن إلى جانب الصومال والجلا وغيرهم من شعوب شرق أفريقيا، كانت هناك قبائل عديدة صغيرة من المجموعة الشرقية للبانتو، ولكن ما يهمنا هنا ما دام الحديث محضاً عن شرق أفريقيا أن نذكر منها الشعب السواحلى، وهذا الشعب كما يدل عليه اسمه، يعيش فى المنطقة الساحلية الممتدة إلى نحو خمسمائة ميل ما بين نهر تانا شمالا ومصب نهر روفوما

جنوباً؛ حيث الحدود السياسية بين تنزانيا وموزمبيق، وحيث هذا أهم جزء فى أقطار البانتو، تعرض للهجرات العربية وللنشاط العربى، كما تعرض أيضا لهجرة بعض سكان إقليم فارس من منطقة شيراز، ولكن كثيرا ما يطلق عليهم اسم الشيرازين، وقد كان فى الإقليم أيضا مجال لهجرات من الهند، وأكثرها من الجهات التى يطلق عليها اليوم اسم باكستان، ولكن الذى لا يدانيه أدنى شك أن الأثر العربى كان أطول وأعمق، حيث يمثل تجارة وانتقالات ثقافية واجتماعية، مصدرها السواحل العربية من عمان وعدن.

وبقطع النظر عن المؤثرات الدينية والاقتصادية التى جاءت نتيجة للهجرات العربية، كان أوضح أثر تركه هذا الإتصال المستمر، هو نشوء وتكوين لغة السواحلى، التى أصبحت هى لغة التعامل فى شرق أفريقيا لا فى الإقليم الساحلى فقط، بل تمتد كما يقول سليجمان من الكونغو غرباً إلى جزر كومورد شرقاً إلى الشمال الغربى من مدغشقر.

وهكذا استطاع الاتصال العربى أن يوجد أداة لغوية واسعة الانتشار فى النصف الشرقى من القارة، وتسهل التعامل والتفاهم بين أبنائها، ومن أجل ذلك لم تتردد حكومة تنزانيا أن تجعل لغتها الرسمية هى اللغة السواحلية، وقد حذا حذوها بعض الحكومات فى شرق أفريقيا.

وهذا اللسان السواحلى فى أصله لغة من لغات البانتو، ونظن أنه مبنى على أصول لغة قبيلة جرباما، وهى تعيش إلى الشمال من ممباسا، ولا يستبعد أن يكون الاتصال الأول بالمهاجرين العرب قد تم فى هذا الإقليم، ثم أخذ ينتشر تدريجيا فى كل اتجاه، ونظرا لأهمية لغة السواحلى، فقد ألفت فيها الكتب وعملت لها المعاجم، وهى لغة من لغات البانتو، لكنها تشتمل على نسبة عالية جدا من الألفاظ والعبارات العربية، ولا شك أنها تكونت فى بيئة مختلطة، تتكون من عرب وبانتو، وإلا لما سميت بهذ الاسم العربى الصريح، والظاهر أنها لغة مرنة وليس المهم فى هذا ما للاتصال العربى من أثر فى ألفاظ اللغة وعباراتها، ولكن المهم أن الاتصال بالعرب قد أكسب الإقليم قومية، لها خطرها فى المقومات السياسية والاجتماعية، الأمر الذى يفتقر إليه كثير من الوحدات الأفريقية الحديثة، التى اضطرتها ظروفها لأن تعتمد على اللغة الفرنسية أو الإنجليزية أو البرتغالية.

ولابد أن يكون من نتائج هذا التأثير العربى بعض الانتشار للدماء العربية، ممتزجة فى الأغلب بدماء من البانتو، ومع ذلك فإن فى البلاد عدداً ليس بالقليل من العرب الصرحاء، وهم على الأرجح متمسكون بمظاهر وتقاليد الحياة العربية، أما سائر السكان فمن المنتظر أن

يكون هناك تنوع كثير فى الصفات الطبيعية، سواء فى لون البشرة أو طول القامة أو مقدار ونوع الشعر ونحو ذلك، كذلك لابد أنه ستكون هنالك اختلافات فى مظاهر الحضارة، وهكذا نرى أننا تابعنا توزيع العناصر السلالية فى الأطراف الشرقية، من شرق القارة الأفريقية، دون الدخول فى تفاصيل دراسة جنسية عرقية سلالية؛ لأن ذلك ربما يدخلنا فى دراسات انثروبولوجية، وجغرافية أجناس، ذلك لأن الموضوع الذى ندرسه هنا هو دراسة تاريخية إسلامية بحتية، دعت ضرورة البحث إلى القاء نظرة على ظروف منطقة شرق القارة، قبل انطلاق أنوار الرسالة الإسلامية إلى تلك الأنحاء.

وحول شرق أفريقيا قبل الدعوة الإسلامية، نجد شارل اندريه جوليان فى كتابهً تاريخ أفريقيا» يذكر أن عرب الجنوب قد شاركوا مشاركة فعالة فى تجارة بونت الصومال مع المصريين، بل أبعدوهم عن الجزئين الأدنى والأوسط من البحر المتوسط، إبان حكم الأسرتين الثامنة عشرة والتاسعة عشر، واحتفظوا طوال الألف سنة السابقة على الميلاد بالسيادة على تجارة الجنوب، وكانوا يمزجون منتجات الهند بمنتجات الصومال وأرتيريا، ويسيرون بها فى قوافل إما إلى سوريا عن طريق مأرب ومكة، وإما إلى طبية عن طريق وادى جاسوس، ولكن الرومان والبطالمة على الخصوص عمدوا إلى تحطيم هذه السيطرة، واكتشف اليونان حوالى عام ٤٠ ق. م ظاهرة هبوب الرياح فى هذه النواحى، وأنشأوا علاقات مباشرة بين أفريقيا وساحل الهند الغربى، وتردد ملاحوهم على أرض الصومال، وتابعوا المسير بحذاء الشاطىء حتى بلغوا مدخل قناة موزمبيق.

لكن العرب استعادوا السيادة على المحيط الهندى وساحل شرق أفريقيا، نتيجة لتدهور اقتصاديات روما، واحتفظوا بها حتى القرن السادس عشر الميلادى وهكذا، كما سبق القول، أنشأ قوم من العرب- والذين جاءوا من الجزيرة العربية، أو من بلاد فارس منذ القرن السابع- سلسلة من الوكالات التجارية فى ساحل شرقى أفريقيا، ولكنهم لم يتجاوزوا راس كوريانت؛ لأن مجرى نهر موزمبيق أوقفهم عن متابعة السير، إلا أنهم وضعوا أقدامهم فى الكومور (جزر القمر) وفى مدغشقر، وكان العرب يهدفون من وراء ذلك إلى الاشتغال بالتجارة، ثم الاستقرار، ولقد شيدوا فيها مدناً فسيحة مزودة بوسائل الراحة، تشابه المدن فى البلاد العربية؛ حيث عاشوا فيها حياتهم التقليدية بمنأى عن نظام الحصون، الذى كان منتشراً فى الجزر.

ومن هنا فقد كان هناك اختلاط وتجانس بين سكان شرق أفريقيا والعرب، منذ وقت

بعيد، وهناك من يذهب إلى أن النشاط اليمنى فى الحبشية يرجع- على الأقل- للقرن العاشر، قبل الميلاد، ومن الثابت أيضا أنه فى هذا الزمن المبكر قد تحركت نواة يمنية صلبة إلى الحبشة وشرق أفريقيا، تتمثل كما سبق الإشارة فى قبيلتى الجشان والأجاعز، وهناك من يشكك فى أن السود الوطنيين كانوا لا يستطيعون وحدهم القيام بهذا النوع من الحضارة فى الحبشة لولا هذه الأمواج العربية القديمة، التى وضعت أساس السامية فى الحبشة، وقد ازداد هذا التأثير أكثر حين تصدع سد مأرب حوالى منتصف القرن الخامس ق. م، وكان هذا السيل الذى لا ينتهى من الهجرة، خلف وراءه اليمن، وقد أثبتت النقوش القديمة فى بلاد الحبشية إما أنهم كانوا يستخدمون فى هذه الفترة المتقدمة اللغة والكتابة السيئة، ومن هنا فإن المخطوطات الحبشية، إما أنها مطابقة تماما للحروف السيئية، وإما أنها تشبهها إلى درجة لا تدع مجالا للشك فى تطورها عن السيئة، وإذا كان لا يمكننا القول أن اللغة الأثيوبية القديمة أو الأمهرية هى مجرد واحدة من اللهجات القديمة للغة العربية، إلا أن هذا لا يمنع الاستنتاج الذى ينتهى إلى أن اللغة الأثيوبية القديمة بعد انفصالها عن اللغات السامية قد سارت فى طريقها نفسه فترة من الزمن، ولكن عملية الانفصال عن العربية كانت فى وقت مبكر، لم تكن فيه العربية قد وصلت إلى أشكالها الحالية، وإلى قواعدها التى كانت فى طريق الاستقرار، بالإضافة إلى أنه ثبت أن هناك أماكن وآلهة وبعض نظم الحياة، كانت مشتركة بين الحبشة واليمن، وهذا يدل على الدور العربى الذى لا شك فيه فى الحبشة.

بل إنه من الثابت أنه فى عهد الدولة الحميرية الثانية، قد غزا الأحباش اليمن غزواً أسفر عن حكم؛ ذلك لأن ملوك حمير الوطنيين سرعان ما تخلصوا من هذا الحكم، وظلوا يحتفظون بمكانتهم حتى حوالى عام ٥٢٥م، وفى النقوش الأكسومية التى ترجع إلى منتصف القرن الرابع، نجد ملك أكسيوم وحمير وريدان وحبشة وسلع وتهامة، ومن المعروف أن هذه الغزوة لم تكن الغزوة الأولى للأحباش فى بلاد العرب، ذلك لأنه حدث قبل ذلك فى القرنين الثانى والثالث الميلاديين أن الأحباش تمكنوا من بسط نفوذ مؤقت لهم على بعض أجزاء بلاد العرب الجنوبية، وقد احتفظت النقوش بأسماء تسعة من ملوك حمير فى ذلك العصر.

بل إنه يمكن القول أن المسيحية قد أخذت طريقها إلى اليمن بواسطة الأحباش، وآزرهم الروم، ذلك لأن قيصر الروم جنينان جهز عام ٢٤ ق. م حملة مؤلفة من عشرة

آلاف رجل، وخرجت من مصر تحت لواء حاكمها يلوس جالوس Aeluis Gallus وقد ساعد الروم فى هذه الحملة حلفائهم الأنباط؛ من أجل تحقيق هدف الاستيلاء على شبكات طرق النقل، التى كانت محتكرة لعرب الجنوب، ومن أجل استغلال الموارد اليمنية لمصلحة روما، وقد توغلوا بالفعل فى المنطقة الجنوبية، بعد أن كانوا قد استولوا على نجران من قبل، كذلك فقد كانت هناك صلات بين الحبشة والشمال سكان الحجاز رغم أنهم تخطوا حادث الغزو الذى قام به أبرهة لمكة المكرمة، ومن هنا ندرك أن مكة نفسها كانت إحدى المناطق الحيوية التى دار حولها نزاع بين الإمبراطورية الفارسية والإمبراطورية البيزنطية، ونحن نلاحظ أنه قد استمر سيل التجارة بين الشمال والحبشة؛ فالمطلب أكبر أولاد عبد مناف، قد عقد أحلافاً تجارية مع النجاشى؛ من أجل إدخال قريش فى أرضه.

وعلى يد هاشم بن عبد مناف وإخوته، خرجت قريش إلى مجال التجارة الخارجية، فقد اتصلوا فيما اتصلوا بالأحباش، ووثقوا الصلات التجارية معهم، ومن هنا كانت رحلاتهم، وهكذا نرى أن الحبشة قد أصبحت متجراً لقريش، ذلك لأن الحبشة كانت أحد المصادر المهمة للتجارة الشرقية، وفى الوقت الذى كانت الحجاز تحصل فيه على منتجات الحبشة، كانت قريش تحمل إليها ما تحتاجه من حاصلات الشام ومن مصنوعاته إلى جانب حاصلات الجزيرة العربية نفسها.

وحين استولت الحبشة على اليمن، ضعف الدور التجارى لقريش، ولكنها ظلت مسيطرة على التجارة الداخلية؛ مما أضطر ابرهة إلى أن يفكر فى انتزاع هذه السيطرة من أيديهم ،على نحو ما مر بنا، ثم لما انحسر الأحباش عن اليمن استعادت قريش زعامتها. وهذا التبادل التجارى البحرى الذى كان بين عرب الحجاز والحبشة، ربما قد أشار إليه عديد من آيات القرآن الكريم، وقد كان الحجازيون الشماليون يذهبون إلى الحبشة، كما أن الأحباش الذين كانوا يعيشون فى الجزيرة العربية، يدخلون فى نسيج الحياة العربية الاجتماعية.

ومهما يكن من أمر العلاقات والصلات والروابط، التى ربطت بين عرب الجزيرة العربية سواء فى اليمن أو الحجاز، أو الساحل الجنوبى والخليج وعمان.. فإن كل هذه الأنحاء قد ارتبطت مع شرق أفريقيا بأقسامها الثلاثة الشمالية – الحبشة وأرتيريا الوسطى ساحل صوماليا والجنوب ساحل الزنج؛ إذ إن كل هذه الصلات كانت– فى بداية الأمر– صلات تجارية وعسكرية، لكن قد تبعها بعد ذلك استقرار من جانب العرب على الشاطىء الغربى للبحر

المتوسط، والقرن الأفريقى، وجزر المحيط الهندى، وساحل شرقى أفريقيا، وإن ذلك قد أدى إلى قيام وكالات ومستوطنات سكنية، وظهور المؤثرات الحضارية العربية والمظاهر الثقافية والاجتماعية، التى ساعدت على ظهور ما أشرنا إليه سابقاً من مظاهر الزى والملبس والتقاليد والعادات، ثم كان أكبر مظهر حضارى وثقافى، ذلك الانتشار الواسع للغة العربية واختلاطها بلغات البانتو، وظهور لغة السواحلى، التى شكلت أجزاء كبيرة فى شرق أفريقيا، إضافة إلى أن اللغة الأمهرية، لغة الحبشة هى جزء من اللغة العربية أو اللغات السامية.

وهكذا كانت هناك صلات بين الطرفين من عصور قديمة، سواء تاريخية بعد الميلاد أو قبل التاريخ الميلاد، بل إنها ازدادت منذ القرن العاشر قبل الميلاد؛ بحيث ظهرت بصورة مؤثرة. وهكذا كانت الروابط والصلات من عوامل الانطلاق العربى إلى تلك الأنحاء، بعد ظهور الإسلام فى الجزيرة العربية، وهذا يدل دلالة مؤكدة على أن العرب كنت لهم سابق معرفة قديمة بهذه الأماكن، وهذا ما سنعرض له فى الباب القادم.

***